خطبة صلاة الجمعة 24/5/2013 للشيخ الطبيب محمّد خير الشعّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(أوصيك)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء:131].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان:14].

روي أنَّ معاذ بن جبل رضي الله عنه، أراد سفراً، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي، قَالَ:«**اعْبُدِ اللَّهَ وَلا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زِدْنِي، قَالَ: «**وَإِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زِدْنِي، قَالَ: «**اسْتَقِمْ وَلْتُحَسِّنْ خُلُقَكَ**» [رواه الطبراني].

عنوان خطبة اليوم:

(أوصيك)

تُطلَق الوصيَّة لغةً على معنيين؛ الأوَّل: بمعنى العهد إلى الغير في القيام بفعل أمرٍ حال حياته أو بعد وفاته، وهذا المعنى هو المراد في عنوان الخطبة.

والمعنى الثَّاني: جَعْلُ المال للغير، وهو المراد بمبحث الوصيَّة في كُتُب الفقه.

وقد عرَّف الفقهاء الوصية فقالوا: تمليكٌ مضافٌ إلى ما بعدَ الموتِ بطريقِ التَّبرع.

وبالمناسبة فللوصية الفقهية أحكامٌ خمسةٌ:

فقد تكون واجبةً: كالوصيَّة بردِّ الودائع والدُّيون، وإخراج الزَّكاة، والحجِّ والكفَّارات، ونحوها.

وقد تكون مسنونةً: كالوصيَّة للأقارب غير الوارثين، ولجهات البرِّ والخير والمحتاجين.

وقد تكون مباحةً: كالوصيَّة للأغنياء من الأجانب والأقارب، فهذه الوصيَّة جائزةٌ.

وقد تكون مكروهةً: لفقيرٍ له ورَثة، إلَّا مع غناهم فتُباح.

وقد تكون حراماً: غير صحيحةٍ كالوصيَّة بمعصية، كمَنْ وصَّى بماله أو بجزءٍ منه للإنفاق على مشروعاتٍ ضارَّةٍ بالأخلاق العامَّة.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ** -وفي رواية: **لَهُ شَيْءٌ يُرِيدُ أَنْ يُوصِيَ فِيهِ**- **يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**».

قال نافع: سمعتُ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: (ما مَرّتْ عَلَيَّ لَيلة منذ سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول ذلك إلَّا وعندي وصيّتي مكتوبةٌ).

هذه لمحةٌ عن الوصيَّة الفقهية، لكن المراد بعنوان الخطبة (أوصيك) المعنى اللُّغوي الأوَّل: أي العهد إلى الغير في القيام بفعل أمرٍ.

فلا زال الصَّلحاء والعقلاء والأدباء وخيار القوم يوصون من يحبُّونهم بخبراتِ حياتهم ونتائج تجاربهم، ولا زالوا يستوصون من يعتقدون صلاحه وفلاحه ليفيدوا من علمه وتقواه.

وإنِّي ذهبتُ إلى أصلح الصَّالحين وأكمل المتقين وخير خلق الله تعالى أجمعين، ذهبت إلى سيِّدنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم أستوصيه، باحثاً في كُتُب الحديث الشَّريف عن بعض وصاياه لنا، فوجدت في كتابٍ اسمه: (الجامع الصَّغير من حديث البشير النَّذير) للإمام السُّيوطي، وهو كتابٌ جمَعَ فيه مؤلِّفه عشرة آلاف حديث، لا يتجاوز أحدها السَّطر إلَّا نادراً. ورتَّبها ترتيباً ألفبائياً، وبعد كلِّ حديثٍ ذَكَرَ رَاوِيَه وحَكَم عليه.

وجدت في هذا الكتاب أحاديث مطْلَعُها كلمة (أوصيك)، أختار لكم منها ثلاثةً، الموصي فيها رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، والمخاطَبُ بعدَ الصَّحابيِّ أنت، فهل تقبل الوصيَّة؟!

- قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ**» [رواه الطبراني].

- وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**أُوصِيكَ أَنْ لَا تَكُونَ لَعَّانًا**» [رواه أحمد والطبراني].

- وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ**» [رواه أحمد].

لَمَّا شرح الإمام المناوي الحديث الأوَّل: «**أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ**» قال: (هذا أبدع بيانٍ وأوجز تبيانٍ؛ إذ لا أحد إلَّا وهو يستحي من عمل القبيح عن أعين أهل الصَّلاح والفضل، فإذا استحيا من الله استحياءه من صالح قومه تجنَّبَ المعاصي).

جاء شابٌ إلى إبراهيم بن أدهم -رحمه الله- فقال له: يا أبا إسحاق! إنِّي مسرفٌ على نفسي فاعرض عليَّ ما يكون لها زاجراً ومستنقذاً لقلبي، قال: إن قبلتَ خمسَ خصالٍ وقدِرتَ عليها لم تضرُّك معصيةٌ ولم تُوْبِقك لذَّة، قال: هات يا أبا إسحاق!

قال: أمَّا الأولى: فإذا أردتَ أن تعصيَ اللهَ عزَّ وجلَّ فلا تأكل رزقَه، قال: فمن أين آكل وكلُّ ما في الأرض من رزقُه؟ قال له: يا هذا! أفيَحسُن أن تأكل رزقَه وتعصيه؟ قال: لا، هاتِ الثَّانية!

قال: وإذا أردتَ أن تعصيَه فلا تسكن شيئاً من بلاده، قال الرَّجل: هذه أعظم من الأولى! إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟ قال: يا هذا! أفيَحسُن أن تأكلَ رزقَه وتَسكنَ بلاده وتعصيه؟ قال: لا، هات الثَّالثة!

قال: إذا أردتَ أن تعصيه وأنت تأكل رزقَه وتسكن بلادَه فانظر موضعاً لا يراك فيه مبارزاً له فاعصه فيه، قال: يا إبراهيم! كيف هذا وهو مطَّلعٌ على ما في السَّرائر؟ قال: يا هذا! أفيَحسُن أن تأكل رزقَه وتسكن بلادَه وتعصيه وهو يراك ويرى ما تجاهره به؟! قال: لا، هات الرَّابعة!

قال: إذا جاءك مَلَك الموت ليقبض روحك فقل له: أخِّرني حتَّى أتوب توبة نصوحاً وأعمل لله عملاً صالحاً، قال: لا يقبل منِّي! قال: يا هذا! فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب، وتعلم أنَّه إذا جاء لم يكن له تأخيرٌ فكيف ترجو وجه الخلاص؟! قال: هات الخامسة!

قال: إذا جاءتك الزَّبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النَّار فلا تذهب معهم، قال: لا يدعونني ولا يقبلون منِّي، قال: فكيف ترجو النَّجاة إذاً؟!

قال له: يا إبراهيم! حسبي حسبي! أنا أستغفر الله وأتوب إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد:4]، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق:14].

وفي حديث جبريل عليه السَّلام: أنَّه سأل النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإحسان فقال له: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [رواه البخاري ومسلم].

يا أيُّها الشَّاب، خُذ وصيَّة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم واستحِ من الله تعالى كما تستحي مِن الرَّجل الصَّالح من قومك.

يا أيَّتها الفتاة، خُذي وصيَّة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم واستحِي من الله تعالى كما تستحين مِن الرَّجل الصَّالح من قومك.

يا أيُّها التَّاجر، ويا أيُّها الصَّانع، ويا أيُّها الموظَّف، ويا أيُّها المؤمن، أيُعقل أن ترهب جانب الْخَلْقِ ولا ترهب جانب الْحَقِ، وأن تخشى النَّاس وتهابهم ولا تخشى من بيده ملكوت السَّموات والأرض، وهو القائل سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:48].

أمَّا الوصيَّة الثَّانية: فإنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يوصيك ألَّا تكون لعاناً أو سباباً أو فحَّاشاً، بلْ كُن عفيف اللِّسان طاهره، لأنَّ لسان المرء يُفصح عن سرِّه، ومَن كان الحقُّ في سرِّه فالطُّهر في قوله، ومَن كان السُّوء في جوفه فالفحش في نطقه.

وإنَّ لساناً تُحَرِّكه آيات القرآن يعفُّ عن الخنا والفحش، روى البخاري مسلم: عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: «وَعَلَيْكُمْ»، قَالَتْ عَائِشَةُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَالذَّامُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَائِشَةُ، لاَ تَكُونِي فَاحِشَةً»، فَقَالَتْ مَا سَمِعْتَ مَا قَالُوا؟ فَقَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عَلَيْهِمُ الَّذِي قَالُوا؟ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ».

أمَّا الوصيَّة الثَّالثة الأخيرة: «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ».

قال المناوي: «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ»، إنَّ الوصيَّة بالتَّقوى وإن قلَّ لفظها جامعةٌ لحقِّ الحقِّ والْخَلْقِ، شاملةٌ لخير الدَّارين، إذ هي تجنب كلَّ منهيٍّ وفعلَ كلِّ مأمورٍ، «وَعَلَيْكَ

بِالْجِهَادِ» الزمه، **«فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ»**، فإذا زهد الرُّهبانُ الدَّنيا، وتخلَوا للتعبد فلا تخلِّيَ ولا زهدَ للمسلم أفضلُ من بذل النَّفس في سبيل الله، **«وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ»**، أي: الزمهما، فإن لزومهما **«رَوْحُكَ»** بفتح الرَّاء راحتك، **«فِي السَّمَاءِ وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ»** بإجراء الله ألسنةَ الْخَلْقِ بالثَّناء الحَسن عليك، أي عند توفر الشُّروط والآداب.

أيُّها الإخوة: أوصيك، خطبةٌ ذَكَرْت لكم فيها ثلاثةً من أحاديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، مطلعها كلمة أوصيك، فتعالوا نجتهد ما استطعنا للعمل بوصاياه صلَّى الله عليه وسلَّم نستعجل بذلك الفرج والمعونة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:20].

والحمد لله رب العالمين